

المؤثرات الفقهية على شرق إفريقيا

. زنجبار نموذجاً .

الدكتور / عبد الحق مياحي

جامعة الأمير عبد القادر

للعلوم الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة : لقد كان للهجرة منذ الأزمنة الغابرة الأثر البالغ على الحياة البشرية والحضارة الإنسانية ، حيث تنعكس بالسلب والإيجاب على مواطن الهجرة ، إذ تنتعش الحضارة والعمران في أماكن الاستقرار ، و تضمحل وتنقرض معالم الحضارة من الأماكن المهاجر منها . ولعل الهجرات العربية إلى القارة الإفريقية تركت بصمات واضحة في حياة الشعوب الإفريقية ثقافياً ، واجتماعياً ، وسياسياً واقتصادياً ولاسيما بعدما شهدت المنطقة العربية ميلاد حضارة إسلامية صافية المنشأ راقية الأداء.

وما لاشك فيه أن هجرات الصحابة رضي الله عنهم ، ابتداء من الهجرة الأولى إلى الحبشة فمرروا بذلك الانتقال من المدينة المنورة إلى البلدان والأقاليم التي أذعن لدعوة الحق كان لها الأثر البالغ في انتشار الإسلام ، كما كان لتعدد اجتهادات الصحابة الفقهية التأثير على التلاميذ والآخرين عنهم علوم الشريعة في الأمصار التي استوطنتها الصحابة الكرام كمصر، والشام ، والعراق ، واليمن ، بل لقد نقل تلامذة الصحابة اجتهاداتهم ، وآراءهم الفقهية إلى أوطان قدموا منها على الصحابة للتلقي والرواية ، هوما أدى فيما بعد إلى ظهور المذاهب الفقهية وخاصة في أوائل القرن الثاني الهجري وإلى منتصف القرن الرابع الهجري ، ولم تكن إفريقيا بمنأى عن هذا الواقع وخاصة شرق إفريقيا ، حيث كانت الهجرات الإسلامية متتالية إليه من عمان واليمن والتي عرفت الإسلام في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، كما شهدت هجرة مكثفة من الصحابة . رضي الله عنهم . . ولعل هذا البحث سيسلط الضوء على المذاهب الفقهية المنتشرة في هذا الجزء من القارة السمراء وأهم مميزات الحركة الفقهية فيها

وأخيرا التعرّيج على بعض الشخصيات الفقهية وتأثيرها في الحركة العلمية عموماً ، مراعين في ذلك التوثيق أولاً ، والحيادية ثانياً ، والإنصاف عند إصدار أي من الأحكام ثالثاً والله نسأل التوفيق والسداد .

بداية الوجود الإسلامي في شرق إفريقيا : إن الصلات بين إفريقيا والعرب ضاربة في القدم ، حيث تشير العديد من المصادر التاريخية للوصول العربي المبكر إلى هذه المنطقة إذ يذكر صاحب كتاب الرحلة الدائرية وصفاً دقيقاً لعلاقة العرب بهذه المنطقة (شرق أفريقيا) حيث يذكر أن السفن الإغريقية الرومانية التي كانت تجوب عباب المحيط الهندي لغرض التبادل التجاري كانت تمر على المدن التجارية في شرق أفريقيا التي لم تكن خاضعة لسلطة مركزية واحدة إنما يحكم كل مدينة حاكم يتبع إدارياً لسلطات الدولة القوية في جنوب الجزيرة العربية ويضيف قائلاً: انه من المألوف رؤية التجار العرب في مناطق الساحل الشرقي لإفريقيا¹. وهو الخبر نفسه الذي أكدّه صاحب كتاب دليل الملاحة في البحر الإترتي حيث يقول " إن منطقة شرق إفريقيا خاضعة بصورة غير مباشرة للدولة العربية ذات النفوذ القوي يديرها أمير معافر من اليمن ويقوم بها تجار مهاجرون من جنوب الجزيرة العربية)². بل ولعل الوصول العربي إلى الساحل الشرقي من القارة أقدم من وصول قبائل البانتو التي استوطنت المنطقة المعروفة اليوم (تنزانيا) ويدعم ذلك اسم الميناء (راباتا) ذو الاشتقاق العربي (ربط) أو مرتبط السفن وكان السبب في هذا التواصل العربي الشرق الأفريقي تلك الظاهرة المعروفة بالرياح الموسمية ، حيث كانوا يستغلون هبوب الرياح الموسمية لركوب البحر واكتشاف المجهول ولتسويق المنتجات المحلية وجلب المنتجات الغير متوفرة عندهم من المواطن المكتشفة بل وقد أدت تلك الظاهرة إلى نزوح سكاني كان يتم بصورة منتظمة ويعكس ذلك الوجود الأفريقي في شبه الجزيرة العربية الغزو الحبشي لليمن وكان له الأثر الأكبر في وجود علاقات عربية إفريقية متينة على جميع الأصعدة ، كما حفظ لنا التاريخ وجود رموز أفريقية في البلاد العربية (بلال الحبشي رضي الله عنه) وكان ذلك قبل الإسلام.

إن وصول المسلمين لشرق القارة واكتشاف مجاهيلها أسبق من وصول البحارة البرتغاليين والألمان المستعمرين ومن بعدهم الإنجليز، فلقد ذكرت الكتب والمصادر التاريخية أن المسلمين وصلوا إلى سواحل المحيط الهندي في القرن الثاني الهجري القرن السابع الميلادي ، وذلك لما عصففت الفتن بدار الخلافة الأموية وخرج أبناء عباد بن عبد الجندلي على الخليفة عبد الملك بن مروان فلما خسروا معركتهم مع الحجاج بن يوسف الثقفي. اختاروا شرق إفريقيا موطناً لهم وملاذاً مما أصابهم ، وكان ذلك سنة 695 ميلادية الموافق ل 84 هجرية³ ، ولو أن الهجرة الإسلامية إلى شرق إفريقيا كانت مع بدايات ظهور الإسلام ، حيث هاجر المسلمون الأوائل إلى الحبشة قبل الهجرة النبوية ، وقد امتزج هؤلاء المسلمون بالسكان الأصليين عن طريق التزاوج والمصاهرة ، ثم تلتها الهجرة

¹ - المؤثرات الإسلامية والمسيحية على شرق إفريقيا / محمد مكي أحمد / ص 26 وما بعدها /

² - نقلاً عن المؤثرات الإسلامية والمسيحية على شرق إفريقيا / محمد مكي أحمد / ص 27 /

³ - جبهة الأخبار في تاريخ زنجبار / سعيد بن علي المغيري / ص 174 وما بعدها /

الحضرمية اليمنية إلى شرق إفريقيا ، وأخيرا الهجرة الهندية وهذه الهجرة قد حملت في طياتها الكثير من المؤثرات على الحياة العامة في شرق إفريقيا ، ومنها الحركة الفقهية .

المذهب الإباضي النشأة والأصول :

ينسب المذهب الإباضي للإمام أبي الشعثاء جابر بن زيد الأزدي المولود سنة 22 هجرية بعمان ثم ما لبث أن هاجر إلى البصرة حيث أسس مدرسة فقهية يث من خلالها آراءه وأفكاره واجتهاداته . وتوفي سنة 96 هجرية ، ومن ثم فإن المذهب الإباضي يعتبر أول مذهب فقهي ظهر في الحياة الإسلامية ، ونسبة الإباضية إلى عبد الله بن أباض التميمي نسبة غير قياسية ساهمت في ذلك الاضطرابات السياسية ، والفتن الداخلية وبسبب تلك المراسلات والمحاورات الطويلة بين عبد الله بن أباض وبين عبد الملك بن مروان⁴ . ولقد كان الإباضية يطلقون على أنفسهم في بداية الأمر أهل الدعوة ، أو أهل الاستقامة، ولم يعرفوا باسم الإباضية إلا بعد موت جابر بن زيد الأزدي ، ولقد تولى أمر المذهب الإباضي بعد الإمام جابر الإمام أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة⁵ ، وعن طريقهما انتشر الأتباع والتلاميذ في الشرق والغرب.

أصول المذهب الإباضي : مصادر التشريع عند الإباضية هي الكتاب والسنة والإجماع والقياس والاستدلال ، ويدخل تحت الاستدلال الاستصحاب والاستحسان والمصالح المرسلة⁶ .

الهجرة العمانية وانتشار المذهب الإباضي : كانت بداية الهجرة العربية الجماعية إلى شرق إفريقيا في القرن الهجري الأول وذلك لما عصفت الفتن بدار الخلافة الأموية وخرج أبناء عباد بن عبد الجندلي على الخليفة عبد الملك بن مروان فلما خسروا معركتهم مع الحجاج بن يوسف الثقفي . اختاروا شرق إفريقيا موطناً لهم وملاذاً مما أصابهم ، وكان ذلك سنة 704 ميلادية الموافق ل 85 هجرية⁷ .

وقد استقر هؤلاء العمانيون في شرق إفريقيا ردحا من الزمن ولكن لم يثبت أنهم نشروا المذهب الإباضي بين سكان شرق إفريقيا الذين لا يزال الكثير منهم وثنيا . ولكن نستطيع القول أن المذهب الإباضي بدأ في الانتشار الكبير في شرق إفريقيا فعليا بعد الفاصل البرتغالي زمن دولة اليعاربة في شرق إفريقيا ، ولكن هذا لا يعني عدم وجوده أو انتشاره في حدود ضيقة من قبل ، والذي يدلنا على ذلك الاتصال الذي تم بإمام عمان والملقب بقيد الأرض من قبل مسلمي زنجبار، يقول المغربي : { ولقد وصل الوفد عمان رحب بهم الإمام ، وقابلهم بالحفاوة والتعظيم ووعدهم بمحاربة البرتغال ، ورجع أعضاء الوفد إلى ممباسة مسرورين }⁸ .

4 . الإباضية مذهب إسلامي معتدل / علي يحيى معمر / ص 9 / الطبعة الثانية / مطبعة الأوان الحديثة /

5 . الإباضية في مصر والمغرب وعلاقتهم بإباضية عمان والبصرة / الدكتور رجب محمد عبد الحليم / ص 13 /

6 . الإباضية مذهب إسلامي معتدل / علي يحيى معمر / ص 30 /

7 - تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان / نور الدين عبد الله بن حميد / السالمي / ج 1 / ص 73 / طبعة الأولى مكتبة الاستقامة 1997 /

8 . جهينة الأخبار / المغربي / ص 190 /

دولة اليعاربة في شرق إفريقيا وتوسع الهجرة العمانية وعلاقتها بانتشار المذهب الإباضي : وتنسب هذه الدولة إلى الإمام المؤيد ناصر بن مرشد بن مالك بن أبي العرب من ولد نصر بن زهران ، وهو أول إمام في اليعاربة سنة 1024 هجرية⁹ .

كما سبقت الإشارة إلى أن مسلمي شرق إفريقيا أوفدوا وفدا رفيع المستوى إلى عمان لمقابلة الإمام سيف بن سلطان الملقب بقيد الأرض وطلب المساعدة للتحرر والتخلص من الاستعمار البرتغالي فأجابهم الإمام إلى ذلك يقول السالمي تأكيداً لما سبق عند ترجمته للإمام السابق الذكر : { وحارب النصاري في جميع الأقطار ، وأخذ منهم ممباسة والجزيرة الخضراء ، وكلوة وبته ، وغيرهن من البلدان التي بالزنج }¹⁰. وكان ذلك سنة 1060 هجرية ، وبعدما أذعنت له إفريقيا أرسل ولاية يحكمون باسمه وخاصة المزارعة وكان منهم الوالي محمد بن عثمان المزروعى¹¹ ، ومما لاشك فيه أن هذا الفتح المبين وطرد البرتغاليين وتعيين الولاية أدى إلى توسع الهجرة العمانية الثانية إلى شرق إفريقيا وهو ما يؤدي بالضرورة إلى انتشار المذهب الإباضي . إلا أن القلاقل والفتن التي تصيب وتحتاج عمان بين الفترة و الأخرى أضعفت من الهجرة العمانية في هذه الحقبة ، وهو ما أدى بدوره إلى عدم انتشار المذهب الإباضي في الأوساط الشعبية الإفريقية وظل المذهب الإباضي مذهب الدولة والولاية رسمياً، حتى أن المصادر لم تسعفا بتراجم بشخصيات علمية إباضية، أو مؤلفات دونت في هذه الحقبة في زنجبار أو شرق إفريقيا . في حين انتشر المذهب الشافعي وبشكل كبير في الأوساط الشعبية ، بل حتى في أوساط السلاطين المحليين في شرق إفريقيا ، حيث كان يحكم زنجبار قبل البوسعديين السادة العلويين وهم من أهل حضرموت يقول المغربي عند ترجمته لسلطان زنجبار المدعو موني مكوا : { هو السلطان أحمد بن محمد بن حسن العلوي ، وهو من سلالة السلاطين السابقين الذين سادوا على الجزيرة منذ زمن طويل قبل قدوم العرب العمانيين لهذه الجزيرة }¹² .

دولة البوسعديين في شرق إفريقيا ودورها في نشر الحركة العلمية : (1828.1964م)

لا أكون مبالغاً إذا ما قلت أن دولة البوسعديين في زنجبار تمثل بحق العصر الذهبي للحركة العلمية والفقهية في شرق إفريقيا عموماً وزنجبار خصوصاً ، ولا يقتصر الحراك الفقهي والعلمي على المذهب الإباضي ، بل وللإنصاف فقد نشطت الحركة العلمية بكل مكوناتها الفقهية سنية وشيعية وإباضية .

العصر الذهبي للحركة الفقهية في زنجبار : يمكننا القول أن العصر الذهبي للحركة الفقهية في زنجبار يبدأ من زمن نقل السلطان سعيد بن سلطان لعاصمة عمان من مسقط إلى زنجبار عام 1832م¹³ . وينتهي بدخول زنجبار تحت الحماية الإنجليزية سنة 1913م وقد توالى على الحكم في زنجبار في هذه الفترة سبع سلاطين ،

⁹ . تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان / نور الدين عبد الله بن حميد / السالمي / ج2 / ص 3

¹⁰ . تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان / نور الدين عبد الله بن حميد / السالمي / ج2 / ص 107

¹¹ . جهينة الأخبار / المغربي / ص 208 وما بعدها .

¹² . جهينة الأخبار / المغربي / ص 263

¹³ . البوسعديون حكام زنجبار / الشيخ عبد الله الفارسي / ص 16

عوامل ازدهار الحركة الفقهية في زنجبار : لازدهار الحركة العلمية في هذا العصر عدة عوامل وأسباب نوجزها فيما يلي :

1. انتقال عاصمة الدولة من مسقط إلى زنجبار وهو ما أدى إلى هجرة كثير من فقهاء الإباضية وقضاة عمان إلى زنجبار مع السلطان سعيد كما هو شأن القاضي العلامة ناصر بن جاعد بن خميس الخروصي¹⁴ .
2. تنظيم شؤون الدولة وإقامة مؤسسات تشبه مؤسسات الدولة الحديثة ، إذ كان للسلطنة وزراء مالية ووزراء خارجية ووزير للتجارة وموظفون مدنيون وقضاة ، حيث نصب القضاة من الشافعية والإباضية في كل شرق إفريقيا ، وقد حفظت لنا كتب التاريخ أسماء علماء أجلاء من أتباع المذهبين تولى منصب القضاء في كل من زنجبار والجزيرة الخضراء ومباسا وماليندي وداخلية البر الإفريقي¹⁵ .
3. التسامح الديني الذي عرف به سلاطين زنجبار : لقد عرف عن سلاطين زنجبار تسامحهم الكبير مع المخالفين لهم في المذهب ، ولم يثبت عن واحد منهم حمل الناس على إتباع المذهب الإباضي رغم إمكانية ذلك فالناس تبع لملوكهم ، ولكن الحق يقال أنهم غاية في التسامح ، حيث أشركوا جميع أتباع المذاهب الفقهية ، بل والفرق العقدية حتى لو كانوا من غير المسلمين في تسيير شؤون السلطنة وعلى سبيل المثال كان مسئول الجمارك من البنيان ويدعى زيرام بسيوحي البنياني¹⁶ ، كما تولى الحاج أحمد بن نعمان الكعبي وزارة الخارجية والسفارة إلى أمريكا في عهد السلطان سعيد¹⁷ . كما أسندت الكثير من مهام القضاء والفتوى لقضاة شافعية وخير مثال القاضي الشيخ محي الدين القحطاني¹⁸ .
4. اتساع حركة الهجرة إلى زنجبار ولكن ليس بسبب الاضطهاد والفتن السياسية ، ولكن لما شهدته زنجبار من تطور وازدهار اقتصادي وسياسي ، حيث هاجر العمانيون وبشكل كبير ، وكونوا مراكز تجارية في داخلية البر الإفريقي ، كما شهدت المنطقة هجرة يمنية من الشحر والمكلا وحضرموت ، وعلى ذات النسق شهدت المنطقة هجرة هندية من مختلف الطوائف الهندية كالأحناف ، والشيعية الإسماعيلية ، و الإثني عشرية ، كما هاجر سكان المناطق الخاضعة لسيطرة السلطان سعيد من بلاد الفارس وغيرها كالبلوش وهو من الحنفية¹⁹ .
5. تشجيع السلاطين للعلماء وتكريم الفقهاء وتقريبهم منهم واستشارتهم في كل ما يتعلق بأمور السلطنة .
6. إنشاء المطبعة العربية في عهد السلطان برغش بن سعيد ثالث سلاطين زنجبار والذي حكم زنجبار بين الفترة 1870 م إلى غاية 1888 م ، وقد تأسست المطبعة عام 1879 م²⁰ ، والتي ساعدت وساهمت في إثراء

¹⁴ . جهينة الأخبار / المغيري / ص 237/

¹⁵ . البوسعيدون حكام زنجبار / عبد الله الفارسي / ص 17 وما بعدها / جهينة الأخبار / المغيري / ص 245/

¹⁶ . جهينة الأخبار / المغيري / ص 261/

¹⁷ . جهينة الأخبار / المغيري / ص 266

¹⁸ . البوسعيدون حكام زنجبار / عبد الله الفارسي / ص 17 وما بعدها / جهينة الأخبار / المغيري / ص 271 /

¹⁹ . جهينة الأخبار / المغيري / ص 261 /

²⁰ . البوسعيدون حكام زنجبار / الشيخ عبد الله بن صالح الفارسي / ص 21 . 22/ طبعة الأولى وزارة التراث القومي والثقافة بسلطنة عمان

الحركة العلمية سواء في الجانب الفقهي أو الأدبي ، وذلك من خلال طباعة الكتب الفقهية والأدبية ومن أبرز هذه الكتب وخاصة ما كان منها إنتاجاً أباضياً يقول المغيري في ترجمة برغش : { وقد أنشأ في زنجبار مطبعة عربية لطبع الكتب الدينية والأدبية ، وسائر العلوم ، وهي باقية إلى الآن ، ولو لم تطبع هذه المطبعة شيئاً إلا كتاب هميان الزاد ، وقاموس الشريعة وحاشية الترتيب ، ومختصر الخصال ، ومختصر البسيوي ، وإزالة الاعتراض ، ومنظومة مدارك الكمال }²¹.

7. العلاقات الدولية الواسعة التي ميزت الحكم البوسعيدي في زنجبار : لقد شهدت زنجبار حراكاً غير عادي في العلاقات الدولية ، والذي يعيننا هاهنا تلك العلاقات مع العالم الإسلامي فعلى المستوى الرسمي توطدت العلاقات بين سلاطين زنجبار البوسعيدين وحكام مصر سواء في عهد محمد علي باشا أو الخديويوي إسماعيل وأخيراً السلطان عبد الحميد²² ، ولقد كان لهذه العلاقات الأثر الكبير في تواصل علماء زنجبار شافعياتهم وإباضيتهم مع علماء مصر والمقيمين فيها من علماء الإباضية من أهل جربة ، ونفوسة ، ووادي ميزاب ، وهو ما أثري الحركة الفقهية من خلال تعدد الآراء الفقهية داخل المذهب الواحد ، وتواصل علماء الإباضية بعضهم ببعض وهو ما كان صعباً وعسيراً قبل ذلك فطبع كتب قطب الأئمة محمد بن يوسف وغيرها من مؤلفات أعلام الإباضية ، و اعتمد من بعده أبو إسحاق أطفيش مرجعاً فقهياً لأهل زنجبار ، وتتلذذ على يديه العشرات من أبناء زنجبار كالشيخ الخليلي المفتي العام لسلطنة زنجبار . كما أدى تأسيس الجمعية العربية إلى انتعاش المذهب الإباضي بشكل كبير نظراً للنشاط العلمي والفقهي الذين ميزوا الجمعية العربية حيث نشطت حركة طباعة الكتب وتوزيعها وخاصة لما تولى أقطاب الإباضية في زنجبار وأثريائها مسألة طباعة الكتب وتوزيعها حتى ولو طبعت في مصر ، أو تونس ، أو غيرها وعلى سبيل مثال كتاب شرح النيل وشفاء العليل لقطب الأئمة محمد بن يوسف أطفيش طبع على نفقة الشيخ محمد بن علي البرواني وهو أحد وجهاء وفقهاء زنجبار ، ثم طبعت بقية الأجزاء في مصر ، وتولى توزيعه في زنجبار الشيخ سالم بن محمد سالم الرواحي والذي تولى توزيع الكثير من كتب علماء الإباضية التي طبعت في القاهرة وخاصة مؤلفات قطب الأئمة محمد بن يوسف أطفيش ككتاب اللجنة في وصف الجنة ، وجامع أركان الإسلام الشامل للفرع والأصل²³ ، وكذلك من الكتب التي طبعت على نفقة أهل زنجبار وأثريائها جوهرية النظام في علمي الأديان والأحكام للعلامة نور الدين أبي محمد السالمي وهو عبارة عن أرجوزة أو متن من خمسة عشر ألف بيت في أصول الدين والفقه طبعت ووزعت في زنجبار على نفقة راشد بن أحمد الحبسي²⁴.

²¹. جبهة الأخبار / المغيري / ص 327/

²². راجع تفاصيل الموضوع في حصاد ندوة العلاقات المصرية العمانية ج3 ص236 طبعة وزارة الثقافة والتراث القومي عمان

²³. المنهاج / مقال بعنوان حركة النشر والتأليف / ج8 / م1 / شعبان 1344هـ

²⁴.. المنهاج / مقال بعنوان حركة النشر والتأليف / ج8 / م1 / شعبان 1344هـ

8. تولى الفقهاء للقضاء : مما لا شك فيه أن القضاء بين الناس يشري الحياة الفقهية ويوسع مجال الاجتهاد وهذا بسبب تلك النوازل والأقضية التي تحدث للناس أو يحدثها الناس في شتى المجالات وإن كان الاجتهاد القضائي في زنجبار لم يخرج عن الرجوع إلى كتب المذاهب الفقهية التالية الحنفي والشافعي والإباضي لأن القضاء في زنجبار لم يعرف النظم الوضعية والقوانين الأرضية إلا في سنة 1908 في عهد السلطان علي بن حمود حيث تأسست المحاكم القانونية²⁵. ولقد كان القضاء في زنجبار بعضهم شافعيًا وبعضهم الآخر أباضيًا حيث تولى هذا المنصب كبار الفقهاء من المذهبين ونذكر على سبيل المثال القاضي يحيى بن خلفان الخروصي ، وعلي بن محمد المنذري ، وعلي بن عامر المسكري ، وهؤلاء قضاة السيد برغش²⁶. ومن القضاة الذين شهد لهم بالاجتهاد في المذهب الإباضي وتركوا بصمات واضحة في الحياة الفقهية هناك القاضي علي بن محمد بن المنذري قال عنه العلامة أبو إسحاق أطفيش : { كان الفقيه . رحمه الله . من أكابر العلماء ، ومن الواقفين على مدارك المذاهب ، أصولها ، وقد وقفنا على بعض رسائله فإذا هي تدل على مكانة كبيرة في العلم تولى القضاء وقضى فيه من حياته عشرين سنة كان فيها مثال التحري للحق بدون يستهويه هوى }²⁷. ولقد ألف مجموعة من الرسائل منها نور التوحيد ، اختصار الأديان في الفقه للتلاميذ المبتدئين ، وكتاب الصراط المستقيم²⁸

المذهب الشافعي : مما أجمعت عليه المصادر والكتابات أن المذهب الشافعي دخل شرق إفريقيا عن طريق الحضارم اليمنيين القادمين إما من حضرموت مباشرة ، وإما من مقديشو الصومال²⁹. يقول المغيري في معرض ذكر الأجناس التي هاجرت إلى زنجبار : { إن القبائل النازلة في زنجبار من غير العمانيين الحضارم من سكان حضرموت والشحر ، والمكلا قد استخدم منهم في الدولة السعيدية ، فمنهم من تولى القضاء }³⁰. ويعتبر المذهب الشافعي من أوسع وأكثر المذاهب انتشاراً في شرق إفريقيا رغم أنه متأخر في الظهور والانتشار عن المذهب الإباضي يقول سبنتر ترمنجهام : { المذهب الشافعي هو المذهب السائد في شرق إفريقيا بسبب أن الإسلام الذي دخل في تلك المنطقة قدم إليها من جنوب الجزيرة }³¹.

عوامل انتشار المذهب الشافعي ورسوخه في شرق إفريقيا :

1. هجرة العلماء الشافعية إلى زنجبار : لقد كانت هجرة علماء الشافعية مبكرة إلى شرق إفريقيا قادمين من اليمن أو من مقديشو والحبشة فمنهم من استقر بزنجبار ومنهم من استقر ببتة منطقة بكينيا حالياً ، وكانت

²⁵. جهينة الأخبار في تاريخ زنجبار / المغيري / 422/

²⁶. جهينة الأخبار في تاريخ زنجبار / المغيري ص 332/

²⁷. المنهاج / أبو إسحاق أطفيش / ج 6/ م 2/ العدد الصادر في جمادى الثانية 1344

²⁸. المنهاج / أبو إسحاق أطفيش / ج 6/ م 2/ العدد الصادر في جمادى الثانية 1344

²⁹. الإسلام واليمنيون الحضارم بشرق إفريقيا / عبد القادر الجنيدي / ص 18/

³⁰. جهينة الأخبار / المغيري / ص 261/

³¹. الإسلام في شرق إفريقيا / سبنتر ترمنجهام / ص 153/

سابقاً من أقاليم دولة زنجبار³². ولم تقتصر هجرة علماء الشافعية على القادمين من اليمن ، بل عرفت في عهود لاحقة وخاصة زمن السلطان سعيد . رحمه الله تعالى هجرات أخرى من منطقة لاموا بالصومال وجزر القمر ، يقول المغيري : { ففي عام 1899م هاجر منهم خمسة عشر ألفاً ، وإن القمرين هم من أهل الطبقة العالية ، الشديدة التمسك بأوامر دينهم الإسلامي ونشر العلوم }³³ . ومن اشتهر من الفقهاء القمرين الذين نزلوا زنجبار وأثروا في الحركة الفقهية وكان لهم الفضل في ترسيخ قدم المذهب الشافعي هناك العلامة أبو بكر بن عبد الله بن سميطة يقول العلامة الجنيدي عنه: { هو أول من هاجر من آل سميطة للدعوة ونشر العلم وأقام مدة طويلة بمنطقة إسند بالقمر ، أقام بها الدروس العلمية وألف كتابه المشهور الترياق النافع شرح إرشاد المسلمين }³⁴ . وهناك أسر عديدة هاجرت من اليمن غير المذكورين كآل الحداد وآل باوزير ، آل السقاف ، وآل الشاطري ، وآل باكثير³⁵

2. تولي منصب القضاء : لعلنا أشرنا سابقاً إلى أن تنصيب القضاة واعتماد نظام القضاء الإسلامي بشكل رسمي كان في عهد السلطان سعيد بن سلطان ، والذي نقل عاصمة دولته من عمان إلى زنجبار سنة 1832م ولقد ضرب السلاطين البوسعيديين أروع الأمثلة في التسامح والإنصاف وعدم التعصب ، حيث عيّنوا القضاة من المذهبيين الشافعي والإباضي فقط ، وذلك بالنظر إلى الوجود الكبير والانتشار الواسع لأتباع المذهبين ، حيث كان أول قاضي في زنجبار الشيخ محي الدين القحطاني وهو من العلماء المرموقين في زنجبار وإليه ينسب كتاب السلوة في أخبار كلوة³⁶ ، وكان السلطان سعيد يخاطبه بالشيخ العالم كما تفيد بذلك تلك المراسلة من السلطان للشيخ بخصوص عدم التعرض لأتباع المذاهب الفقهية الأخرى³⁷ . وكان ذائع الصيت مسموع الكلمة عند بقية سلاطين زنجبار وله مؤلفات مشهورة منها شرح على خطبة المنهاج³⁸ . ولم يشغله منصب القضاء عن التدريس فترك تلاميذ حازا قصب السبق في زنجبار منهم الشيخ أحمد بن سالم ، والشيخ عبد العزيز الاموي ، والشيخ سليمان حياة³⁹ . ومن تولى القضاء وخدم من خلاله المذهب الشافعي العلامة أحمد بن أبو بكر بن عبد الله بن عبد الرحمن بن سميطة تولى قضاء زنجبار بطلب من السلطان برغش ومكث قاضياً ثلاث سنوات ، ثم سافر إلى الأستانة والتقى فيها بالعلماء والفضلاء ، ثم من الأستانة قصد الحرمين الشريفين ، ثم مصر وكان يتردد على حضرموت اليمن، وقد التقى في كل هذه البقاع الصالحين والعلماء⁴⁰ ، ثم عاد إلى زنجبار وتولى فيها القضاء سنة

³² . الإسلام واليمنون الحضارم بشرق إفريقيا / عبد القادر الجنيدي / ص 18/

³³ . جهينة الأخبار / المغيري / ص 524/

³⁴ . الإسلام واليمنون الحضارم في شرق إفريقيا / عبد القادر الجنيدي / ص 45 وما بعدها /

³⁵ . الإسلام واليمنون الحضارم في شرق إفريقيا / عبد القادر الجنيدي / ص 45 وما بعدها .

³⁶ . السلوة في أخبار كلوة مطبوع مع جهينة الأخبار بتاريخ زنجبار/ المغيري / ص 101/

³⁷ . جهينة الأخبار / ص 271/

³⁸ . البوسعيديون حكام زنجبار / عبد الله صالح الفارسي / ص 75/

³⁹ . بعض علماء زنجبار / عبد الله صالح الفارسي / ص 5 / طبعة الأولى في كينيا مترجم من السواحيلية

⁴⁰ . الإسلام واليمنون الحضارم في شرق إفريقيا / عبد القادر الجنيدي / ص 46 وما بعدها

1319 هجرية فكانت المدة التي قضاهما في مجال القضاء في زنجبار أربعين سنة ، وقد أخذ في التصنيف والتأليف فألف الكتب الكثيرة منها منهل الورد ، الكوكب الزاهر ، منهج الفضائل ، تحفة الألباب ، المطالب السنية شرح النصائح الدينية ، حاشية فتح الجواد⁴¹ ، وتبين نماذج الأحكام التي بين أيدينا مدى التزام القضاة أحكام الشريعة ورجوعهم إلى كتب الفقه المعتمدة ، ففي قضية دعوى قتل رفعت إلى القاضي علي بن محمد المنذري بمحكمة زنجبار، وبعد بيان الحكم الشرعي يشير إلى اعتماده كتاب المنهاج وهو من كتب الشافعية المعتمدة حيث يقول { وقال في المنهاج وشرحه وكذلك لو قطع يده ومات وزعم }⁴². وفي قضية أخرى حكم فيها الشيخ أبوبكر بن طاهر الاموي أشار فيها المحامي والقاضي لإلى مرجعين في المذهب الشافعي كانا مرجع الحكم وهما كتاب أسنى المطالب شرح روض الطالب وتحفة المحتاج شرح المنهاج⁴³.

3 الاتصالات المتواصلة مع علماء الشافعية في العالم الإسلامي : كما لعبت أسفار علماء الإباضية إلى

عمان ومصر دوراً بارزاً في خدمة المذهب الإباضي لما في ذلك من التلاقي بعلماء المذهب والإفادة منهم، كذلك الشأن بالنسبة للمذهب الشافعي فقد كانت للرحلة في طلب العلم الأثر الكبير في انتشار المذهب الشافعي في شرق إفريقيا وتعزيز مكانته بين السكان ، وكانت وجهة علماء وطلاب العلم الشافعية في شرق إفريقيا إما الحرمين الشريفين للاستفادة من علمائهما ، وإما إلى الأستانة بتركيا ، وإما مصر ، أو حضرموت اليمن ومن هؤلاء العلماء الشيخ أحمد أبو بكر بن سميث ، حيث رحل إلى حضرموت وفيها أخذ العلم على جلة مشايخها وعلمائها وكانت حضرموت يومها تزخر بالعلماء والفقهاء ومن هؤلاء الشيخ علي بن محمد الحبشي⁴⁴. ثم هاجر إلى اسطنبول والتقى بعلمائها ومشايخها ولازم العارف بالله فضل بن علوي بن سهل⁴⁵ ، وبمصر أخذ على الشيخ علي الأنباي والشيخ محمد الكيالي⁴⁶. وإذا انتقلنا إلى شخصية علمية أخرى تركت بصمات واضحة على الحركة العلمية في زنجبار ألا وهو الشيخ عبد الله بن محمد بن سالم بن أحمد باكثير ولد سنة 1276 هـ ولد وترعرع يتيماً أخذ العلم على شيوخ زنجبار من أمثال الشيخ أبو بكر أحمد بن السميث والشيخ عبد الله باوزير فلما بلغ من العمر تسعة عشر سنة حمل عصا الترحال فقصد الحرمين الشريفين ، حيث لازم العلماء والفضلاء هناك فنهل من العلوم ما شاء الله أن ينهل ومن تتلمذ على أيديهم في مكة المكرمة الشيخ محمد بابصيل وكان هذا الأخير مفتي مكة ، والشيخ أحمد دحلان وكان هو الآخر مفتي مكة وبعد وفاته تولى

⁴¹ بعض علماء زنجبار / عبد الله صالح الفارسي / ص 5 / طبعة الأولى في كينيا ص 68 .

⁴² . حكم صادر من محكمة زنجبار / مأخوذ من أرشيف محكمة زنجبار تحت رقم 43 / za/Hc10

⁴³ . حكم صادر من محكمة زنجبار / مأخوذ من أرشيف محكمة زنجبار تحت رقماً 42 / ZA /HC10

⁴⁴ . بعض علماء شرق إفريقيا / عبد الله بن صالح الفارسي / ص 68

⁴⁵ . الإسلام واليمينون الحضارم بشرق إفريقيا/ عبد القادر الجنيد / ص 46/

⁴⁶ . ملحوظات الشيخ عبد الله صالح الفارسي مخطوط /

الشيخ بابصيل، والشيخ عمر باجنيد، والشيخ حسين بن محمد الحبشي⁴⁷ وفي المدينة المنورة أخذ على الشيخ علي طاهر المدني الحنفي الأربعين نووية⁴⁸.

5. نظام الإجازات والاهتمام بالحركة العلمية أكثر من الاهتمام بالجانب السياسي والإداري : على خلاف أعلام الإباضية وشيوخهم، الذين وبحكم تولى العمانيين الحكم في زنجبار فقد شاركوا في أمور السياسة، فإن شيوخ الشافعية لم ينغمسوا في أمور السياسة ودهاليزها وظلوا مهتمين بنشر العلم والتأليف وإن تقربوا من السلاطين والحكام وتولوا مناصب القضاء إلا أن اهتمامهم الأكبر كان الجانب العلمي دراسة وتدريساً ونشراً بين الناس ويؤكد ذلك رحلتهم في طلب العلم إلى كل من حضرموت والتي كانت قبلة لأهل العلم يومها، والحرمين الشريفين ومصر. وبالرجوع إلى إجازات بعض الشيوخ في زنجبار يتبين لنا مدى عناية فقهاء الشافعية بنظام الإجازات والاحتفاء بالعلم دون غيره من المسائل الأخرى، ففي إجازة للشيخ عبد الله صالح الفارسي يقول المجيز وهو الشيخ محمد المهدي الشاطري: { وأما الإجازة، فقد أجزت الشيخ عبد الله في جميع ما تصح لي روايته ودرايته من علم وعمل }⁴⁹، وفي إجازة أخرى للشيخ محمد بن عبد الرحمن بن أحمد با شيخ من الشيخ العلامة محمد بن حسين المالكي المكي يقول المجيز: { قد أجزته بجميع ما يجوز لي روايته من تفسير وحديث وفقه وأصولين، ونحو وصرف ومعاني وبيان وأوراد وأحزاب وفوائد حسان }⁵⁰. وفي سند هذه الإجازة أعلام علماء بلغوا درجة الاجتهاد منهم الشيخ محمد عابد مفتي المالكية بمكة المشرفة وقد توفي بمكة عام 1341 هجرية ومنهم الشيخ أحمد زيني دحلان مفتي الشافعية ورئيس المدرسين بمكة المكرمة⁵¹.

6. الطرق الصوفية : لقد كان للطرق الصوفية المنتشرة في شرق إفريقيا عموماً وزنجبار خصوصاً الأثر الأكبر في انتشار المذهب الشافعي، وذلك لأن كل مشايخ الطرق الصوفية ينتسبون للمذهب الشافعي، وأهم الطرق الصوفية المنتشرة في زنجبار :

أ. القادرية : تشير الروايات التاريخية إلى أول طريقة صوفية وصلت شرق إفريقيا هي الطريقة القادرية وأول داعية لها هو الشيخ حسين عبد الله المعين وصل زنجبار قادماً من مكة المكرمة حوالي عام 1875 وقد تأخى مع الشيخ علي بن عمر الشيرازي والذي أصبح فيما بعد خليفته في الطريقة⁵². وقد كان لعلماء الصومال وزيلع الأثر الكبير في انتشار هذه الطريقة وخاصة الشيخ عويس بن محمد الصومالي والذي وصل زنجبار بدعوة من سلطانتها برغش بن سعيد عام 1884 م وقد انتشرت هذه الطريقة بعدها في شرق إفريقيا وبلغ عدد مريديها

⁴⁷. بعض علماء زنجبار / عبد الله صالح الفارسي / ص 29/

⁴⁸. نفس المرجع ص 33/

⁴⁹. إجازة مخطوطة للشيخ عبد الله صالح الفارسي / مخطوطات الشيخ عبد الله

⁵⁰. إجازات عبد الله بن صالح الفارسي / مخطوط

⁵¹. نفس المرجع

⁵². المؤثرات الإسلامية والمسيحية على شرق إفريقيا / الدكتور حسن مكي محمد / ص 112 / الطبعة الأولى دار جامعة إفريقيا العالمية

الآلاف ، وبلغ عدد الزوايا التي أنشأها ستا وعشرون زاوية ورباطا وانتشرت هذه الطريقة في كل من دار السلام وليندي وتانجا وطابورا ودودوما وأوجيجي⁵³.

ب. الشاذلية : ومؤسس هذه الطريقة في زنجبار هو الشيخ محمد معروف قمري الأصل ، وقد أسست هذه الطريقة مدارس قرآنية ذات قدرة استيعابية كبيرة ، والتي تدرس فيها بجانب الأوراد الصوفية والأذكار اللغة العربية والشرعية الإسلامية بمختلف فروعها كالفقه والتفسير والعقيدة والسيرة وغيرها من العلوم الشرعية ، وتعتمد هذه المدارس في الفقه أساساً على المذهب الشافعي⁵⁴.

ج. الطريقة العلوية : تعود جذور وأصول هذه الطريقة إلى حضرموت اليمن حيث حملها إلى شرق إفريقيا وزنجبار خصوصاً أولئك القادمون من حضرموت ولعل جل مشايخ هذه الطريقة معدودون في كبار العلماء والفقهاء كأمثال الشيخ عبد الله بن محمد باكثير ، والشيخ عبد الله بن محمد السقاف وجميع أسرة آل جمل الليل ، وخير دليل على ذلك أن تلك الإجازات العلمية والتي مضى الكلام عنها تقرر بين الإجازة في العلم والإجازة في الورد والذكر ويشرف أتباع هذه الطريقة في زنجبار على مدارس النور والتي يصل عدد طلابها إلى الآلاف في زنجبار وحدها⁵⁵.

د. الطريقة الأحمدية الإدريسية : وقد وصلت هذه الطريقة إلى زنجبار عن طريق مصر وليس عن طريق الصومال ، حيث سافر الشيخ أحمد بن حامد الدندراوي من زنجبار إلى مصر وهناك أخذ الطريقة على يد العارف بالله تعالى المصري أحمد الدندراوي ولكن هذه الطريقة لم تسطع كسب الأتباع رغم اعتمادها هي الأخرى على إنشاء المدارس والأربطة والاهتمام بالجانب الاجتماعي والاقتصادي⁵⁶.

المذهب الحنفي : لا توجد بين أيدينا وثائق أو نصوص تثبت بداية هجرة أتباع المذهب الحنفي لشرق القارة الإفريقية اللهم ما ذكره المغيري عند الكلام على الجالية الهندية والبلوش القادمين من بلاد الفرس من أنهم استوطنوا زنجبار أيام السلطان سعيد ولم يذكر أنهم تولى القضاء ، بل عنايتهم كانت بالإدارة والتجارة حيث قال : { كذلك سائر الأجناس الهندية المهاجرة من الهند إلى زنجبار كاليمين وهم حنفية المذهب والبلوش وهو حنفية المذهب }⁵⁷. ولكن هذا لم يمنعهم من إنشاء مسجد خاص بهم ، و مدرسة يطلق علي المسجد اسم المسجد الحنفي ، وأما المدرسة فأطلق عليها المدرسة السنية الكائنين في قلب المدينة الحجرية. كما أن لهم وجود حالياً في مدينة دار السلام حيث أسسوا مجمعا علميا باسم مجمع الجامعة النورية ، وقد استعانوا بالأساتذة والشيوخ الهنود .

⁵³. نفس المرجع / ص 114

⁵⁴. الإسلام في شرق إفريقيا / سبنسر ترمنجهام / ص 179

⁵⁵. المؤثرات الإسلامية والمسيحية على شرق إفريقيا / الدكتور حسن مكي محمد / ص 126

⁵⁶. نفس المرجع ص 124 وما بعدها

⁵⁷. جبهة الأخبار / ص 261

عوامل عدم انتشار المذهب الحنفي في شرق إفريقيا :

1. قلة عدد المهاجرين من الأحناف إلى شرق إفريقيا.
2. عدم اهتمامهم بالجانب العلمي ، حيث لم يؤثر عن وجود عالم كبير على طراز بعض الفقهاء . الشافعية ، أو الإباضية ، والانشغال بالتجارة وأمور الإدارة .
3. عدم تولي شيوخ الحنفية لمنصب القضاء عكس الشافعية والإباضية.
4. انغلاق الجالية الهندية على نفسها .

المذاهب الشيعية

أ. الشيعة الإثني عشرية (الجعفرية) : يذهب الكثيرون إلى أن بداية الوجود الشيعي الجعفري كانت مع الهجرة الشيرازية على المنطقة سنة خمسمائة هجرية ، حيث وصل الشيرازيون القادمون من بلاد الفرس إلى منطقة كلوة وغيرها من مناطق شرق إفريقيا في القرن الثالث الهجري وتحديدا سنة 265 هجرية ، وكانوا على مذهب الإثني عشرية⁵⁸ . ولكن الذي ذكره ابن بطوطة أن أهل تلك المنطقة كانوا شافعية والذي يؤكد هذا الخبر أن السلطان زمن دخول ابن بطوطة هو أبو المواهب وقد قال فيه المغيري : { وتوه في عدن (اليمن) سنتين لأجل تعلم العلم الروحاني ويقصد بذلك التصوف فتبحر فيه غاية ، وكان عالما فاضلا ، فتبحر في جميع العلوم⁵⁹ . ومن أعلى شأن المذهب الجعفري في شرق إفريقيا الحاج أحمد بن نعمان الكعبي ، والخدمة الجليلة التي قدمها للمذهب لم تكن في مجال الفقه والاجتهاد ، وإنما بسبب المنصب الرفيع الذي تولاه في جهاز الدولة البوسعيدية ، حيث كان وزيرا للخارجية وأول سفير للسلطان سعيد إلى الولايات المتحدة الأمريكية⁶⁰ ، ولقد فتح الكعبي للشيعة الإثني عشرية الباب واسعا للهجرة إلى زنجبار وعموم شرق إفريقيا ، ورغم أنهم كانوا يمثلون تعدادا لا بأس به في زنجبار وعموم شرق إفريقيا إلا أنه لم يعرف عنهم السعي إلى نشر المذهب الجعفري إلا مؤخرا مع انتصار الثورة الإيرانية في محاولة لتصدير الثورة فقد تحركت الجهود الشيعية لإنشاء الحسينيات ، والمدارس النظامية كمدارس بلال والمراكز الإسلامية والجمعيات الخيرية⁶¹ .

ب. الإسماعيلية : تعتبر الطائفية الإسماعيلية آخر الطوائف الهندية هجرة إلى شرق إفريقيا حيث استوطنوا زنجبار عام 1748 ولقد اهتم الإسماعيليون بشرق إفريقيا في عهد الأغا خان حيث أنشأ خمسة مجالس إقليمية لشرق إفريقيا ومجلسا اتحاديا في ممبسا ، والذي يميز الشيعة الإسماعيلية عدم دعايتهم للمذهب وقد يقوم بعضهم بدعوة غير المسلمين من الوثنيين استثناء ولهذا لم ينتشر المذهب الإسماعيلي وظل رهينة أتباعه من الهنود إلى يومنا هذا

⁵⁸ . جبهة الأخبار / المغيري / ص 134 وما بعدها /

⁵⁹ . جبهة الأخبار / المغيري / ص 109 وما بعدها /

⁶⁰ . جبهة الأخبار / المغير / ص 267 وما بعدها /

⁶¹ . المؤثرات الإسلامية والمسيحية على شرق إفريقيا / حسن مكي أحمد / ص 37 وما بعدها /

في إفريقيا⁶² . رغم أنهم نشطوا في أوائل القرن الماضي نشاطاً كبيراً كما قال المغييري عند ترجمته لسلطان آغا خان : { لهم اليد العليا في التبرعات الخيرية لإنشاء المدارس حتى توسع عدد المسلمين في داخلية البر الإفريقي وكثر عدد المسلمين بواسطة المبشرين الذين عينهم السلطان آغا خان ، لنشر الإسلام بين الإفريقيين }⁶³ ، وتؤكد بعض الدراسات أن دعوة أتباع آغا خان للإسلام لم تكن دعوة لمذهب معين ، بل هي دعوة للإسلام فقط وهذا ما أدى لعدم انتشار المذهب الإسماعيلي⁶⁴ .

الخلاصة : وبعد هذه الجولة في شرق إفريقيا نستطيع القول بأن الوجود العربي والإسلامي في المنطقة ترك بصمات واضحة المعالم في القارة الإفريقية و على جميع الأصعدة ، رغم ما تخلل الوجود العربي من أخطاء وهنات ، ولكن لا يمكن غض الطرف عن التجربة بما حملته في طياتها من إيجابيات كبيرة ، وكبيرة جدا ، وذلك لأنها تعاملت مع المعطيات الواقعية في القارة بكل واقعية و روح اجتهادية ، فلم تحمل النصوص التشريعية ، كما لم تحمل الواقع والمستجدات كما يمكن تلخيص الحياة الفقهية والعلمية في زنجبار في النقاط التالية :

أ. التنوع والتعدد المذهبي : حيث عرفت المنطقة أكثر من مذهب فقهي شافعي ، إباضي ، حنفي ، شيعي .

ب. التعايش السلمي بين هذه المذاهب والتعاون فيما بين أتباعها ، حيث لم تشهد المنطقة صراعا مذهبيا حادا يؤدي إلى التناحر والتهاجر ، وسبب هذا التعايش يرجع إلى تسامح السلاطين مع الجميع وإشراك جميع أتباع المذاهب في الحياة العامة

ج. التقليد وغياب روح الاجتهاد : رغم علو كعب الفقهاء في زنجبار سواء الشافعية أو الإباضية إلا أنهم في كثير من الأحيان يرجعون إلى الفقهاء الشافعية في حضرموت ، أو فقهاء الإباضية الجزائريين في مصر كأبي إسحاق أطفيش ومن قبله قطب الأئمة محمد بن يوسف فيما يعن لهم من قضايا ومساائل كما لم يؤثر عنهم سوى الاعتماد على الأمهات من كتب المذاهب المشار إليها سابقا.

⁶² . الإسلام في شرق إفريقيا / سبنسر ترمنجهام / ص 189 وما بعدها .

⁶³ . جبهة الأخبار / المغييري / ص 472/

⁶⁴ . الإسلام في شرق إفريقيا / سبنسر ترمنجهام / ص 190/